العرب
الإثنين 2021/10/04
السنة 44 العدد 12199

رحلة سوريين إلى قبرص تنتهي بألم التشتت

عائلات ركبت القارب نفسه فوصل بعضها ورجع البعض الآخر إلى لبنان

تتشابه معاناة السوريين الذين غادروا البلاد بحثا عن مستقر آمن لكنّ تفاصيل قصصهم تختلف، فمنهم من نجا ووصل إلى حيث يريد ومنهم من تاه في الأرض ومنهم من غرق في البحر، لكن ما يؤلم أن بعض العائلات تشتتت في حين أنها ركبت القارب نفسه للعبور إلى قبرص.

يفصلهم البحر عن أمهم

كوفينو (قبرص) - "أنا محطمة هنا"... هكذا بدأت حديثها اللاجئة السورية كوثر رسلان التي تحمل رضيعها في مخيم للمهاجرين في قبرص حيث نقلتها السلطات بعدما انفصلت عن زوجها وأطفالها الصغار في البحر.

ومع العشرات من المهاجرين السوريين الآخرين غادرت كوثر رسلان بيروت في الثاني والعشرين من أغسطس في قارب كان متوجها بشكل غير قانوني إلى الجزيرة الواقعة على مسافة نحو 160 كيلومترا من لبنان.

وكانت الشابة البالغة 25 عاما، والتي بدأت رحلتها مع زوجها وطفليها اللذين يبلغان عاما وثلاثة أعوام، على وشك الولادة. على مسافة نحو عشرة كيلومترات من الساحل القبرصي، أصبح القارب محاطا بخفر السواحل الذين أبحروا لإعادته إلى لبنان.

في مقطع فيديو التقط من على متن القارب يُسمع ركاب وهم يصرخون "ساعدونا!".

ونظرا إلى وضع كوثر الصحي اصطحبها عناصر خفر السواحل معهم، لكنهم تركوا بقية أفراد عائلتها في القارب الذي عاد بعد ذلك متوجها إلى لبنان حيث يعيش أكثر من مليون لاجئ سوري.

ومع مواجهة لبنان أزمة اقتصادية غير مسبوقة بدأ المئات من السوريين قبل عام محاولة العبور إلى قبرص، لكن هذا البلد العضو في الاتحاد الأوروبي -الذي أصبح حاليا يضم أكبر عدد من طالبي اللجوء نسبة إلى عدد السكان- وقّع اتفاقا مع لبنان عام 2020 يقضي بإعادة أي مهاجر غير شرعي يحاول الوصول إلى الجزيرة بحرا.

وقالت كوثر التي تعيش في مبنى مسبق الصنع في مخيم كوفينو (جنوب) "كدت أموت عندما علمت بعودة عائلتي إلى لبنان".

وأضافت "كنت متأكدة من أن عناصر خفر السواحل القبرصي سيسمحون لزوجي وطفلي بالعبور، ولن يفرقونا، أو لن يعيدوهم إلى لبنان، كنت متأكدة من ذلك، شاهدوا زوجي وهو يضعني على قارب الإنقاذ وكان يحاول إعطائي الطفلين، لكنهم اقتادوه ومنعوه من ذلك، وكانت طفلتي برفقته، لا يمكنني أن أنسى هذه اللحظة".

وطلبت كوثر -المنحدرة من إدلب في شمال غرب سوريا- من السلطات القبرصية قبول طلبها للم شمل الأسرة قائلة "لا يمكننا أن نعيش في لبنان أو في سوريا، أطالب السلطات القبرصية بأن تعيد لم شمل عائلتي، كي أعيش مع أطفالي هنا وأضمن لهم مستقبلا أفضل".

وبحسب القانون القبرصي يحق فقط للمهاجرين الحاصلين على وضع لاجئ لم شمل أفراد أسرهم. لكن من بين قرابة 7700 طالب لجوء سوري وصلوا إلى الجزيرة منذ عام 2018، حصل أقل من 2 في المئة على هذا الوضع، وفقا لمفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين.

> اتفاق قبرص مع لبنان يقضي بإعادة أي مهاجر غير شرعي يحاول الوصول إلى الجزيرة بحرا

من جانبه أفاد زوج كوثر حسن علي في قرية عين التفاحة القريبة من بيروت حيث يستأجر غرفة "الأطفال مصدومون، ينادون بلا هوادة ماما".

واستذكر يوم الثاني والعشرين من أغسطس المأساوي عندما بقي القارب في مكانه "لساعات" أثناء تدخل خفر السواحل. وتابع "كانت الشمس حارقة عندما كنا على متن القارب، الطفلان أصيبا بالجفاف. كانت طفلتي لا تتحرك، اعتقدت أنها ستموت، وأنها لن تنجو. وابني كذلك، كان بالكاد يتحرك، لم يكن يتنفس بشكل طبيعي".

عيسى شمّا -وهو لاجئ سوري آخر كان على متن القارب- موجود أيضا في كوفينو. وعلى غرار كوثر انفصل عن عائلته بعدما فقد وعيه على متن القارب.

وقال هذا المهاجر البالغ 37 عاما وأصله من حلب ويعاني من مشاكل في رئتيه "عندما وصلنا إلى المخيم قالوا لي إن زوجتي وأطفالي موجودون في مخيم آخر للاجئين، وإنه سيتم إحضارهم إلى هنا في اليوم التالي. لكن أحد السوريين في المخيم قال لي إنه علم من خلال صفحة على فيسبوك أنه تمت إعادتهم إلى لبنان. لم أسمع أي خبر عن أفراد عائلتي لمدة ثلاثة أيام، كانوا محتجزين لدى الأمن العام اللبناني".

بحسب مفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين فإن الإعادة القسرية للمهاجرين في البحر تتعارض مع القانون الدولي. وأوضحت إميليا ستروفوليدو الناطقة باسم المفوضية في قبرص أن "هذه الممارسة يجب أن تتوقف لأنها تعرّض أرواحا للخطر"، ودعت السلطات إلى لم شمل أسرتيْ كوثر وعيسى.

من جهتها ستطلق "أوروماد دروا" -وهي شبكة تضم 65 منظمة متوسطية لحقوق الإنسان- حملة اليوم الاثنين لنشر الوعي بهذه المسألة، داعية الاتحاد الأوروبي إلى "التحقيق في الانتهاكات التي ارتكبتها شرطة الحدود القبرصية".

في الحادي والعشرين من سبتمبر خلال جلسة استماع في البرلمان القبرصي، انتقد العديد من النواب سياسة الهجرة في بلادهم. وقالت النائبة ألكسندرا أتاليدس من حزب الخضر "على الحكومة تطبيق القوانين الدولية ولمّ شمل كوثر مع عائلتها الآن".

القطط أحنّ من القوانين

بدوره شدد وزير الداخلية نيكوس نوريس على أن بلاده "يحق لها رفض الوصول غير القانوني إلى المهاجرين".

وخلال زيارة لنيقوسيا نهاية أغسطس أكدت المفوضة الأوروبية للشؤون الداخلية ييلفا يوهانسون أن عملية الإعادة القسرية "تثير تساؤلات". وفي انتظار التوصل إلى حل لقضيتها قالت كوثر "أبكي طوال الوقت، وأظل حزينة. هذا ما أقوم به دائما. أنا مدمرة هنا، وعائلتي مدمرة كذلك في لبنان. ماذا يمكنني أن أفعل؟".

المشردون.. الوجه البائس لبرلين

برلين - يجذب كلاوس سيلفندر صورة لملعب كان يمثل بيتا له لعدة سنوات، وينظر عن كثب إلى الصورة... 15 شخصا يحيطون به في ضاحية ميته الراقية ببرلين، في الوقت الذي يحكي فيه هذا المرشد السياحي للرحلة عن ماضيه.

وعاش سيلفندر في شوارع العاصمة الألمانية خلال الأعوام من 2002 إلى 2009، وهو يناضل للتخلص من إدمان المشروبات الكحولية.

واليوم أصبح واحدا من عدة أشخاص اعتادوا على حياة التشرد في الشوارع، وصاروا الآن مرشدين سياحيين في جولات بأنحاء العاصمة، حيث يعملون لصالح منظمة "كوريشتاين" غير الهادفة للربح، التي يمكن ترجمة معناها إلى "عبر المدينة".

ويرافق سيلفندر السياح في جولات يشرح خلالها مختلف فترات حياته التي عاشها مشرّدا في الشوارع.

وتتمثل فكرة هذه الجولات في التركيز على الحكاية الفردية للمرشد السياحي، في محاولة لبناء جسور وخلق حوار بين الناس.

ولد سيلفندر في فرانكفورت آن دير أودر، وهي مدينة صغيرة تقع على الحدود مع بولندا وكانت جزءا من ألمانيا الشرقية، وبعد سقوط جدار برلين اشتغل ضمن العمالة الزراعية الموسمية وحصل على إعانة بطالة.

ثم عمل في شركة للتبغ خلال الفترة من 1998 إلى 2002، ولكنه تركها بسبب خلافات داخلية على حد قوله.

وعندما لم يجد مكانا يذهب إليه توجه سيلفندر إلى برلين، وخطط لأن يمضي الأيام القليلة الأولى بالقرب من مقر إرسالية خيرية بجوار محطة السكك الحديدية، عند محطة حديقة الحيوان الشهيرة في المدينة، وهي إرسالية تقدم إلى المحتاجين وجبات ساخنة وملابس وأنواعا من الدعم.

وانتهى الحال بسيلفندر إلى العيش في الشوارع لنحو سبعة أعوام.

ويصف للسياح كيف كان يعيش دون أن يكون لديه تأمين اجتماعي أو صحي أو حتى بطاقة هوية، ويقول "لم يعد لي وجود بالنسبة إلى الدولة".

وشعر بسعادة عندما عثر على الملعب الموجود في وسط برلين، وكان ينام داخل كوخ خشبي صغير، ورحب به باعتباره مأوى يحميه من برد الليالي ويحفظه من لدغ الحشرات والفئران.

وعزل سيلفندر المكان بصناديق كرتونية مطوية، ويقول متذكرا الليالي شديدة البرودة والرياح -حيث كانت الحرارة تنخفض إلى 15 درجة مئوية تحت الصفر- "كان المكان يعد نوعا من الرفاهية بالنسبة إلى شخص بلا مأوى".

وبعد أن مر بتجربة سيئة قرر عدم العودة إلى مأوى المشردين، وتتمثل هذه التجربة في أن شخصا مشردا كان يقيم بجواره ومدمنا على المخدرات، ولم يستطع العثور على عرق يمكنه من حقن نفسه بالمخدر، ويحكي ما حدث قائلا إن "الدماء المندفعة من شرايين هذا الرجل سالت على وجهي".

وحكاية سيلفندر ليست غير معهودة، فقد تم تسجيل نحو 2000 شخص بلا مأوى ويعيشون في شوارع المدينة، وذلك خلال أول تعداد للمشردين يجرى في برلين خلال يناير 2020.

ومن المرجح أن يكون العدد الحقيقي للمشردين في العاصمة الألمانية أكبر من ذلك بكثير، على حد قول باربارا بريور المتحدثة باسم إرسالية مدينة برلين.

> مشردون يعملون مرشدين سياحيين لصالح منظمة «كوريشتاين» غير الهادفة للربح، التي يمكن ترجمة معناها إلى «عبر المدينة»

وتقدم وزارة العمل تقديرات لأعداد المشردين على مستوى الدولة بأكملها، حيث أعلنت أن عدد الأشخاص بلا مأوى في ألمانيا عام 2018 بلغ 678 ألفا.

والمحطة الثانية في هذه الجولة السياحية كانت أمام صندوق قمامة برتقالي اللون، ويقول سيلفندر إن "الحياة في الشوارع هي معركة من أجل البقاء"، ويعني بذلك جمع القوارير الفارغة.

ويهدف مشروع إعادة القوارير الفارغة في ألمانيا إلى تشجيع إعادة التدوير، فيمكن للمشترين أن يعيدوا العبوات الزجاجية والبلاستيكية إلى المتاجر مقابل الحصول على 25 سنتا (0.29 دولارا).

ويضيف سيلفندر أنه كان يستطيع العيش بخمسة يورو في اليوم، ذلك إذا لم يكن معتادا على التدخين وتناول الكحوليات.

ويشير إلى أنه كان يضطر أحيانا إلى السير لمسافة 50 كيلومترا في اليوم لكي يعثر على قوارير فارغة، ويوضح قائلا "هناك الكثير من التنافس على جمع القوارير في برلين، والكثير من الناس يستولون على مناطق معينة لحسابهم ويدافعون عنها".

وذات يوم تم نقله إلى المستشفى، بعد أن ضربه شخص على رأسه بزجاجة.

ومع أن أيام نومه في الشوارع انتهت فإن بعض العادات التي تكونت لديه مازالت ملتصقة به، إذ لا يزال سيلفندر يفتش في كل متر بساحات انتظار السيارات عن قوارير فارغة.

ونجح سيلفندر في مغادرة الشوارع في شتاء 2009 عندما اصطحبه صديق قديم إلى شقته، وأخبره بأن أمامه أربعة أشهر لكي يجهز أوراقه ويحصل على مبلغ من المال ومكان ليعيش فيه.

وبهذه المساعدة والدعم من "أسرته الجديدة" استطاع سيلفندر أن يكمل التحول في حياته، وامتنع عن التدخين وتناول الكحوليات منذ تسع سنوات.

وتعلق ماري -وهي إحدى المشاركات في الجولة بالمدينة بعد انتهاء الرحلة- قائلة "إنني أشعر بأن هذا عالم موازٍ قائم في برلين أنت تعلمه، ولكن ليس لك أي اتصال به".

بينما يقول سيلفندر إن "كل جولة أقوم بها هي بمثابة متابعة لرحلة علاجي، فهي تذكرني بالحالة المزرية التي كنت أعيشها، وبأنني لا أريد أن أعود إليها مرة أخرى".

يحكي قصته أم قصص المدينة